وراء البحار

تأليف محمد أمين حسونه

بقلم محمود عزت موسى

أتيح لى منذ أيام أن أقرأ الكتاب الذى ألفه وأصدره أخيراً صديق الأستاذ محمد أمين حسونه وأسماه « وراء البحار » ؛ وفى هذا الكتاب رحلة المؤلف إلى اليونان وتركيا ورومانيا والنمسا والمجر ، وقد عنى بطبعه عناية فائقة فجاء مثالا بديعاً للذوق الرقيق . وليست هذه هى المرة الأولى التى أتيح لى فيها أن أقرأ للأستاذ حسونه ، فأنا أقرأ له منذ صدر حياتى الأدبية ، وقد التقت أقلامنا على صفحات السياسة الأسبوعية فى عام ١٩٢٩ وفى ذلك الحين أيضاً التقت صداقتنا ؛ ولقد قرأت له كتابه الأول « أشبال الثورة » ، وهى الرواية التى استهل بها أدبه القصصى ، ثم قرأت له « الورد الأبيض » ، وهى المجموعة القصصية التى جمعته فى طليعة أدباء الشباب ، ولعلنى استطعت من خلال تلك القراءات كلها أن أتعرف إلى أسلوبه وأدبه ، ومن أجل هذا كنت أود أن أنصف الأستاذ حسونه أكثر مما أنصف نفسه هو فأقول بأن كتابه « وراء البحار » ليس فى الواقع إلا قصة طويلة لحياة شاعر فى خلال رحلة فنية إلى بلاد تاقت نفسه اليها .. واستقرت عواطفه فى أجمل بقاعها ، فراح يصفها لا بلغة المسافر ، ولكن بلغة الشاعر ، فلم يذهب فيما ذهب اليه الذين سبقوه فى وصف رحلاتهم ، ولكنه انتحى لنفسه منحى غير الذى ألفه الناس فيما قرأوا .. فلم يحاول أن يكتب عما شغل غيره من كتاب الرحلات فى الأوصاف التى يمكن للانسان أن يجدها بسهولة فى كتب السياحات ، ولكنه ذهب إلى تلك البلاد حاملاً بين جنبيه تلك النفس الطامحة المضطرمة شباباً ونشاطاً ، فتبدو فى بعض الصفحات مشبوبة حارة ملتهبة تفيض خيالاً وعذوبة ، والتى تغزوها الآلام والأحزان فتبدو فى انقباضة القلق الحائر . وإنه ليحلو لى أن أصف نفسية الكتاب ، ولا أتناول فصوله فصلاً فصلاً تناول الذى يمسك بمبضعه ليقيم نفسه جراحاً — أو جزاراً — على عمل أدبى ، يحلو لى أن أصف نفسية الكتاب لأننى أعتقد بأنى قد ألفيت فيه وحدة فنية قائمة بذاتها ، ترتكز على شخصية واحدة ، هى شخصية المؤلف ؛ وهذه الوحدة الفنية تجعلنى أرى أن المؤلف إنما عمد إلى رحلته بدافع الاستمتاع الذهنى والقلبى فى وقت واحد ، فوفق . ولم تذهب هذه الشخصية عنه فى أية لحظة ، بل هو يصفها بدافع الاعجاب ، ولكن بشخصية ، أو بمعنى آخر بقومية ، ومن هنا ترتفع مكانة الكتاب عندى ، لأنه يقول فى معرض حديثه عن الأكروبول . . . « ولكن أين ربوات الأكروبول من ساحل طيبة الخالد على مر الدهور ، أو من مهابة الأهرام ومعابد الكرنك وقصور فيلى ؟ تلك الكاتدرائيات الفرعونية العظيمة التى شيدتها وتقلت جلاميدها الصخرية الهائلة الأيدى السحرية العجيبة . . . . » أو عند ما يذكر « أذكر أنى قابلت فى أحد المطاعم (فى أثينا) جنـــدياً فى الجيش كاد يبكى وهو يحدثنى بالعربية فى السعادة التى تنعم فى اعطافها يوم أن كان يعمل « جرسونا » بمقاهى القاهرة الكبرى . . . . » « ويستطرد فى القول » . . . وأحسب أنه نتيجة عطف أولته مصر لأبناء هـذه البلاد منذ انبثق فجر التاريخ . فقديماً لقنهم المصريون أسرار الحكمة وأصول التشريع وزودوهم بأساحة من العلم واستقامة الفهم ، فذاناؤس وكـكرلس وفيثاغورس شهب ثاقبة فى سماء الثقافة الأغريقية ، لكنهم لم يزيدوا على أن يكونوا مصريين .. » وكما يبدو فى حديثه عن الاسلام وسلاطين آل عثمان فى خلال وصفه لاستامبول ، وهذه الظاهرة الفريدة فى الكتاب تجعلنى أسجلها مغتبطاً

قد كنت أوثر أن يحدثنا — فوق ذلك — الأستاذ حسونه عن تلك البقاع التى زارها أحاديث تتناول صميم الحياة هنالك ، عن وسائل رقيهم ، وصناعاتهم ، ونظم الجميات الهامة فيها ، والروح الفردية فى تلك الأمم ، ونواحى الضعف فى جماعاتهم ، وأسبابها ، والظواهر التى يلمحها فى أنظمتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وان يتناول بالبحث الانقلاب الكمالى من جذوره فى زيارته لتركيا ليصف ويقرر الحقائق التى لا يمكن للقارئ أن يجدها فى الصحف لاعتبارات شتى ، وأحسب أنه قد لمح الى ذلك تلميحاً خفيفاً فهل فصل ذلك عن عمد ؟ أحسب ذلك . ولكننى أرجو أن يوفق الى ذلك فى كتابه المقبل ، فى صراحة تامة ؛ فبلادنا فى عصر نهضة ، ولكن حطب هذه النهضة ، وكلما زدناها ناراً ازدادت اشتعالاً ونوراً وارتفاعاً ، ولن يكون ذلك إلا إذا أفرغنا فى سبيلها الجهد كل الجهد وعنينا بتوضيح كل ما يفيد هذه النهضة ويوطد دعاماتها ؟

محمود عزت موسى